21

وصية في العمل والقَدَر

نص الوصية

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ خَلْقَ أَحَدِكُم يُجْمَعُ في بَطْنِ أمِّه أربعين يوماً وأربعين ليلةً، ثم يكون عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثم يكون مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثم يُبْعَثُ إليه المَلَكُ فَيُؤْذَنُ بأربعِ كلماتٍ: فَيُكْتَبُ رزقُهُ وأَجَلُهُ وعَمَلُهُ، وشَقِيٌّ أم سعيدٌ، ثم يُنْفَخُ فيه الروحُ. فإنَّ أحدَكُم لَيَعْمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ حتى لا يكونَ بينها وبينَهُ إلا ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بعملِ أهلِ النارِ فيدخُلُ النارَ، وإن أحدَكُم لَيَعْمَلُ بعملِ أهلِ النارِ حتى ما يكونُ بينها وبينه إلا ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكتابُ فيعملُ عَمَلَ أهلِ الجنةِ فيدخُلُها»**[1].

مفردات الوصية

يجمع خلقه: يضم خلقه بعضه إلى بعض، وقد يحتمل أن معنى الجمع هو مكث البويضة في رحم المرأة بعد تلقيحها بالنطفة.

علقة: دم غليظ.

مضغة: هي قطعة اللحم بمقدار ما يُمضغ في الفم.

شقي: من أهل الشقاء الكفار الذين في النار خالدين فيها.

سعيد: من أهل دار السعادة المؤمنين الذين في الجنة خالدين فيها.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (7016) ومواضع أخرى متفرقة. ومسلم في صحيحه برقم (2643).

فيسبق عليه: يَغْلب عليه.

الكتاب: أي كتاب الملك الذي كتبه وهو في بطن أمه.

ما يُفْهَمُ من الوصية

أختي المسلمة، في هذه الوصية الجليلة حَثٌّ على فهم معنى القدر الذي قدّره الله على عباده منذ خلقهم، وفيها أيضاً حضٌّ على العمل الصالح إذ إن عمل الإنسان هو الذي يُدْخله مداخل الشقاء أو السعادة، وفيها شرح وبيان لأحوال الجنين في بطن أمه على نحو معجز باهر لم يكن معروفاً عند أطباء ذلك الزمان حتى عصرنا الحديث.

وثمة أمور تفصيلية لا بد من الوقوف عندها لتوضيح معنى الوصية تماماً على النحو التالي:

1- كيفية خلق الإنسان

أختي المسلمة، هذه الوصية برواياتها المتعددة يشير إلى كيفية خلق الإنسان في بطن أمه التي فيها الرحم؛ وفي القرآن الكريم توضيح للخلق ومراحل الخلق أيضاً، وبالجمع بين القرآن والسنة النبوية نستطيع أن نفهم أن الإنسان يخلقه الله في بطن أمه في ظلمات ثلاث، قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: 6]؛ فالظلمات الثلاث هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. وأما مراحل الخلق هي:

أ- المرحلة الأولى

وقد بيَّن النبي ﷺ أن هذا الخلق يجمع في بطن الأم ويضم ضماً؛ وهذا الضم هو باجتماع النطفة التي هي ماء الرجل مع البويضة التي تنزل إلى الرحم من المبيض، فيحصل التلقيح فالإخصاب في داخل الرحم.

ب- المرحلة الثانية

ثم يأتي طور آخر هو طور العلقة التي هي عبارة عن الدم الجامد المتخثر، وهذا لأن الكلمة تدل أصلاً في اللغة على الشيء الذي يتعلق بغيره، ومنه دودة العلقة المعروفة الذي يشبهها الجنين في هذه المرحلة من الحمل؛ إذ إن الجنين يتعلق بحبل السُّرَّة إلى جدار الرحم، فتنشأ داخله أوعية الدم على شكل شبكة من الجُزُر الملتفة المعلقة التي تعطيه مظهر علقة الدم الجامد؛ فالشبكة هذه تجعل الدم غير متحرك في الأوعية الدموية. قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: 38].

ج- المرحلة الثالثة

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: 14]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5].

ففي هذا الطور يشير القرآن الكريم إلى أن التخلق يتدرج حتى يزداد رويداً رويداً فيصير مضغة مخلقة تظهر للحس ظهوراً ليس فيه خفاء.

د- المرحلة الرابعة

وفي هذه المرحلة تكسى العظام لحماً، وقد جاء هذا البيان في رواية أخرى لفظها: «**إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلةً بعث الله إليها مَلَكاً فصوَّرَها وخَلَقَ سمعها وبصرها وجِلْدَها وعظامَها، ثم قال**» الحديث.

والروايات تذكر الأربعين يوماً تارةً، والأربعين ليلةً تارةً أخرى، وبعضها كما هنا في رواية مسلم يَذْكر (42) ليلة، وبعضها يذكر (البضع) الذي هو ما بين الثلاث إلى التسع، فالروايات ليس فيها تحديد جازم حقاً،

Obeikandl.com

والعلم يحدثنا عن أن الصورة البشرية في الجنين تتضح في أول ما تتضح في الأسبوع السابع بانتشار الهيكل العظمي الذي يبدأ في هذا الأسبوع الذي يكون ما بين (42-45) يوماً تمثل الحد الفاصل بين المضغة والشكل البشري؛ إذ بعد أن يمر على النطفة اثنان وأربعون يوماً بلياليها يبدأ التصوير فيها ليأخذ الجنين شكله البشري بظهور الهيكل العظمي الغضروفي، ثم تبدأ أعضاء الجنين التناسلية بالظهور بعد الأسبوع العاشر.

هـ- المرحلة الخامسة

وهذه المرحلة يحدثنا عنها القرآن بما سبق ذكره من آيات؛ فبعد أن تظهر العظام يبدأ الكساء باللحم فتحيط العضلات المتشكلة بالعظام، وتبدو الصورة البشرية ظاهرة واضحة بهذا الكساء، وبعد تمام هذا التكوين العضلي يبدأ الجنين الحركة، والأسبوع العاشر هو الذي تتكون العضلات في نهايته وهي مستمرة منذ الأسبوع الثامن عقب طور العظام مباشرةً.

و- المرحلة الأخيرة

وهي مرحلة إنشاء الجنين خلقاً آخر كما في آية المؤمنين آنفة الذكر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: 14]، وذلك بحرف العطف "ثم" الدال على التراخي والانقطاع في المدة الزمنية، وهو هنا انقطاع بسيط؛ ففي العلم الوضعي أنه في نهاية الأسبوع الثامن تبدأ مرحلة جديدة يتسارع فيها معدل نمو الجنين مقارنة مع ما سبق، ويتحول الجنين إلى خلق آخر لتظهر أحجام الرأس والجسم والأطراف في توازن واعتدال بين الأسبوعين: التاسع والثاني عشر، وبعد ظهور الأعضاء التناسلية الخارجية في الأسبوع العاشر يتطور بناء الهيكل العظمي من عظام غضروفية لينة إلى عظام كلسية صُلْبة في

الأسبوع الثاني عشر، وفيه تتمايز الأطراف والأصابع بعضها من بعض ويتحدد جنس الجنين بظهور الأعضاء التناسلية الخارجية على نحو واضح.

ويهيأ الجنين للحياة خارج الرحم في هذه المرحلة، كما يزود الجسم بأجهزته لتتمكن من أداء وظائفها، وذلك كله في الأسبوع الثاني والعشرين، وينتهي هذا في الأسبوع السادس والعشرين حين يصبح الجهاز التنفسي مستعداً لأداء وظائفه، والجهاز العصبي مؤهلاً لضبط حرارة جسم الجنين، ثم يأتي المخاض والولادة.

2- أحكام الروح

أختي المسلمة، في هذه الوصية بيان لحكم الجنين في بطن أمه، إذ تنفخ فيه الروح بعد شهور أربعة، ولا يجوز أن يُسْقَط الجنين ما دام في بطن أمه سواء أنفخت فيه الروح أم لم تنفخ، فإذا نفخت فيه الروح فحكمه كحكم القتل، فالمرأة التي تُسقط الجنين بعد نفخ الروح تعدُّ قاتلة لجنينها، وهو أمر عظيم.

ومن هذا الحديث أخذ العلماء كالشافعي في بعض أقواله وأحمد بن حنبل وغيرهما أن الجنين إذا بلغ أربعة أشهر وعشراً ففي تلك العشر يُنفخ فيه الروح ويصلى عليه إذا سقط. وعلى كل حال فالراجح الصحيح أن التخليق للجنين كما دل عليه نص الوصية هنا لا يكون إلا في الأربعين الثالثة، فإذا بلغ الجنين مئةً وعشرين يوماً فمات غُسِّل وكُفِّن ودفن بغير صلاة عليه، وأما ما قبل ذلك فلا؛ إذ أقل مدة يتضح فيها خلق الجنين هي (81) يوماً في بداية الأربعين الثالثة، وربما لا يتضح خلقه إلا في آخرها.

وبنى العلماء على ذلك مناقشة حول المرأة الحامل لو أنها أسقطت الجنين في أثناء العِدَّة فمتى تعتبر عدتها منقضية؟ رأى بعضهم بناءً على نص

الوصية أن انقضاء العدة هنا لا يكون إلا إذا دخلت المرأة في الأربعين الثالثة من حملها، وهذا القول هو الصواب هنا.

3- تقدير الله للمقادير

أختي المسلمة، قد كتب الله في اللوح المحفوظ كل شيء منذ الأزل؛ فقد قال النبي ﷺ: **«إن أول ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ ثم قال: اكتُبْ، فقال: ما أكتبُ؟ قال: القَدَر، فَجَرَى في تلك الساعة ما هو كائن إلى يوم القيامة»**؛ فالقلم قد دوَّن كل ما هو كائن إلى قيام الساعة ودخول الناس الجنة والنار، فالله هو العليم قد كتب في اللوح المحفوظ -الذي هو الذكر- كلَّ شيء.

وهذا لا يعني أن ما كتبه الله إجبار للعباد على أفعالهم ولا إكراه للإنسان على أفعاله الاختيارية، فالإنسان له أفعال يختارها بنفسه، وهذه هي أعماله، والله يعلم كل صغيرة وكبيرة من هذه الأعمال التي سيفعلها البشر، وهذا دليل على علمه وعلى قدرته جل وعلا. وأما الإنسان فيختار أفعاله بنفسه، ولذلك فهو مسؤول عنها.

وهذا العلم الذي دوَّنه الله سبحانه في اللوح المحفوظ هو علم ثابت لا يتغير، فهو علم أزلي، وأما الصحف التي تكتبها الملائكة عن العبد فهي يمكن أن يتغير ما فيها، وهي هذه التي ذكرت في هذه الوصية؛ فالملائكة يأمرهم الله أن يكتبوا عن العبد هل هو من أهل الجنة أم من أهل النار، وهذا بحسب عمله، وكذلك يكتب له مقدار الرزق ومقدار الأجل، والعمل، وهذا العمل هو الذي يمحى فيه ويثبت من الأفعال والأقوال الصادرة عن العبد فقط، وأما ما هو أزلي في علم الله فلا يتغير ولا يمحى مثل كون العبد من أهل الجنة أو النار، ومثل الأجل والرزق.

أ- الرزق المكتوب

فالله قسم لكل عبد رزقه وهذا الرزق مقدَّر له عند الله، وهو كالكومة – لو أننا ضربناها مثلاً – وهذه الكومة يعطيه الله منها إن شاء الله دفعة واحدة، وإن شاء على دفعات، وذلك في أي وقت كان، ولا يموت إنسان قبل أن ينال رزقه كاملاً كما قسمه الله له، قال النبي ﷺ: **«إن رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوْعي: أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكملَ رزقَهَا وأجَلَها»**، وجاءت زيادة في رواية أخرى بلفظ بعد هذه الألفاظ: **«فاتقوا الله وأجْملوا في الطلب، ولا يَحْمِلَنَّكُم استبطاءُ الرزقِ أن تأخذوه بمعصية الله؛ فإن الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته»**[1].

فدلَّ هذا الحديث الأخير على أن الرزق يطلق على الحرام والحلال؛ فسواء أخذ الإنسان المال بالحرام أم بالحلال فإنه يسمى رزقاً، فالقمار مالُهُ رزق، وكذلك مال الربا، ومال الرشوة، ومال السرقة، غير أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نطلب الرزق الحلال، وأوضح لنا أنه هو الذي يرزقنا وليس لأحد تدخل في مسألة الرزق، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

وأيضاً قال الله تعالى مخاطباً المشركين وغيرهم من الذين يتخلصون من الأولاد خشية الرزق بالقتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31]، وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151]؛ فالمشركون في الجاهلية كان بعضهم يَئِدُ البنات

---

(1) روح القدس: جبريل عليه السلام؛ أي الروح المقدسة الطاهرة. نفث: نفخ بفمه. الروع: النفْس؛ يعني ألقى في قلبي وأوقع في نفسي وألهمني. أجملوا: ائتوا الأمر الجميل من طلب الرزق، ولا تطلبوه بالمعصية. استبطاء الرزق: استبطأت الشيء إذا وجدته بطيئاً.

– أي يدفنونهن وهن أحياء في التراب – وذلك خشية العار والفضيحة، وكان بعضهم إذا أصابه الفقر ربما قَتَلَ بعض أولاده الذكور بسبب عدم قدرته على إطعامهم بزعمه، فأمر الله بعدم فعل ذلك من خوف الإملاق؛ أي الافتقار الشديد، فالله هو الذي يرزق هؤلاء ولستم أنتم الذين ترزقونهم حتى تقتلوهم، فلكل إنسان رزقه المحدد له في هذه الدنيا.

وقد قال تعالى أيضاً: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 30]؛ فأخبرنا الله في هذه الآية أنه هو الرازق القابض الباسط الذي يتصرف في عباده كيف يشاء فيُغْني من يشاء ويُفْقِرُ من يشاء بما لَهُ في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي أنه خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ فيما رواه عن ربه عز وجل: **«إن مِنْ عبادي مَنْ لا يُصْلحه إلا الفقرُ، ولو أغنيتُهُ لأَفْسَدْتُ عليه دِينَهُ، وإن من عبادي لَمَنْ لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرتُهُ لأفسدتُ عليه دينه»**. وربما كان الغنى في حق بعض الناس استدراجاً لهم، وكان الفقر عقوبة لبعضهم والعياذ بالله من هذين الأمرين.

ب- طلب الرزق الحلال

أختي المسلمة، إن الشكوى من الفقر لا تنفع البشر، فالبشر لا يملكون شيئاً لأنفسهم، فهم قد قدر الله لهم أرزاقهم، والعبد يفعل ما عليه، ولن يأتيه إلا ما قَدَّره الله له من الرزق، فلا يظنن أحد أن سعيه يجلب الرزق، فهو قد يسعى فلا ينال شيئاً، وكثير من الناس تأتيهم أرزاقهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون، فالله أمرنا بأن نفعل الواجب علينا، ولم يأمرنا أن

نفكر كيف يأتينا الرزق، فلا يجوز أصلاً أن نفكر في كيفية إتيان الرزق ونحن في أثناء العمل؛ فهذا الأمر يجعلنا نضطرب في التفكير وفي تأدية العمل، فإذا فكر الإنسان وقال في نفسه: ربما سيأتي الرزق على يد فلان، أو بهذا العمل، أو بذاك العمل، وربما هنا، أو هناك، فهذا يجعله معتمداً على البشر لا على رب البشر، وهذا مخالف للتفكير الصحيح المطلوب منا، فالمطلوب منا أن ندعو الله وأن نسأله وحده، وألا يكون في أنفسنا ذرة شك في أن أرزاقنا ستأتينا، وعلينا أن نعمل كما أمرنا الله لطلب الرزق، ولا يعني هذا أن العمل سوف يجلب شيئاً، بل الله هو الذي يقدّر لنا كل شيء، ولا يجوز أن يدخل في نفوسنا أن نعصي الله في سبيل الرزق، فهذا خَلَلٌ كبير يدخله الشيطان إلى أصحاب العقيدة الضعيفة المهتزة.

وقد بيَّن الله تعالى هذا الأمر فقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البقرة: 268]؛ فالشيطان يوسوس لنا بأننا سنصبح فقراء، وهذا هو وعده، فنظن أننا إذا ما أنفقنا المال في مرضاة الله فسوف نفتقر، ولذلك فالشيطان يدخل علينا من هذا الباب الذي يكون الناس منه خائفين؛ وهو باب الفقر، ومن ثم يسهل على الشيطان أن يقنع ضعيفي النفس بأن يفعلوا الفاحشة؛ فكم من فتاة ضلَّت وأضلَّت غيرها بسبب هذا التفكير العاجز الضعيف، وهي تحتج أمام الناس بأنها كانت فقيرة فاتخذت حرفة الحرام حرفةً لها لتكسب المال، وحجتها هي في الحقيقة طمع النفس والجشع، وهذا مرض النفس البشرية دائماً عبر العصور.

ج- قصة صغيرة

طاعة الله لا تُنْقِصُ المالَ، ومهما ظن العبد أن ماله سينقص فهو ظنٌّ ضعيف خاسرٌ، وأنا أحدثك - أختي المسلمة - عن شخص أعرفه جيداً،

وأعرف عنه الكثير مما لا يعرفه أهله، وهو ينفق المال في طاعة الله سراً بدون أن تعلم زوجته وأولاده أو أحد من الناس، وكان هذا الشخص يضحك أحياناً ويعجب لما يحصل له، فما من شيء ينفقه إلا رجع عليه بأضعاف مضاعفة في يومه أو بعد حين، وكان هذا الشخص يخشى من هذا الكرم الرباني ألا يدَّخر الله له ذلك في الآخرة؛ أي أن ما أعطاه الله له في الدنيا قد يكون جزاءً عاجلاً يُنْقص من ثواب الآخرة، ثم أدرك المسألة تماماً حين سأل وشُرِحَتْ له.

كان حياة هذا الإنسان في فقر حالك مع عائلته، ولقد صبر صبراً يراه الناس عجيباً لو اطلعوا عليه، وعاينت منه الأمور العجيبة في الصبر، وكان كل ما مَرَّ به أمراً هيناً في نفسه، ولم يُحِسَّ بالمرارة ولا بالأسى بسبب الفقر، وكان يقدم كل ما في يده للآخرين، وحين يأتيه ضيف يكرمه أحسن إكرام، ولا يشعر الضيوف بحالته، وكان أقرباؤه الذين يأتون من أماكن بعيدة، وأصدقاؤه يظنون حالته أفضل من حالتهم، بل إن لباسه كان يبدو أفضل من لباسهم، وكافح وعمل بجد واجتهاد بدون شكوى ولا تذمر، وكان يتعجب في المجالس كيف يشتكي الناس من فقرهم علماً بأن ما يذكرونه عن الفقر الذي مروا به لا يساوي جزءاً مما عاناه هو وقاسى منه، وهو لا يذكر ذلك ولا يتذكره أصلاً لأنه مسلِّم أمره لله، ويرى أن هذا اعتراض على الله، وقد فتح الله عليه فتحاً يحسده عليه الأغنياء حوله، فما الذي لا يملكه هؤلاء الأغنياء حتى يحسدوه عليه؟

إنه يملك الكثير مما لا يستطيع الأغنياء أن يمتلكوه مهما دفعوا المال، وأذكر هنا فقط شيئاً مهماً لا يتعلق بالمال ولا بالأملاك الواسعة، بل يتعلق بأمر واحد مهم: إنه كان لا يتمنى شيئاً من الدنيا، ولو أنه خطر في باله شيء

في الصباح لوجده في المساء، ولَقُدِّم إليه من حيث يعلم أو لا يعلم، وكانت أموره وتخطيطاته التي يفكر بها في نفسه متحققة ومُنَفَّذَة كافة ، وكثيراً ما كنت أتعجب لهذا الفضل الإلهي على ذلك الشخص! لقد كان ينام هانئاً قرير العين وليس في جيبه قرش واحد ينفقه، ولا يشعر بالهم والغم، وكم كنت أتمنى هذا اليقين في نفسي كما كان في نفس ذلك الشخص!

د- قصة أخرى عن قسمة الأرزاق

كان أحد أصحابنا مهندساً بارعاً عزّ نظيره في البلد من حيث البراعة والذكاء والعلم، وكنا مرة في بيت أحد أصدقائه فإذا به يستأذن ويدخل ليودعنا، وكان سبب ذلك أنه وجد عملاً في بعض دول العرب النفطية، فقد عرضوا عليه عملاً بمرتب يزيد كثيراً على مرتبه في بلدنا، وبالفعل ودعناه وانصرفنا.

ثم بعد فترة كنا في المجلس نفسه في ذلك البيت، وإذا بالباب يقرع ويدخل علينا ذلك الشخص نفسه، فقلت له: يا فلان، ألم نكن ودعناك في المرة الماضية؟ فَلِمَ لم تسافر؟ فضحك وقال: إن صاحب العمل هنا عرض علي المبلغ نفسه الذي سآخذه في ذلك البلد، فَلِمَ السفر؟ وما حاجتي إلى الغربة؟

وهكذا - أختي المسلمة - فالرزق مقسوم، وهو أينما كان الإنسان يَكُنْ معه، وهذا من تدبير الله سبحانه، ولا مدبِّر غيره لهذا الوجود.

هـ- قصة ثالثة

ومن القصص الغريبة ما حَدَّث به أحدهم فقال: اشتريت علبة سمن ديناً منذ زمن طويل، ولم أكن قادراً على دفع ثمنها المرتفع، بل لم أكن أجد المال للدفع آنذاك، وكنت في مكان سمعت فيه أحد الأشخاص يحدِّث عن

طريقة صنع السمن الأوربي الحيواني، فاتضح أن علبة السمن التي لدي يحل أكل ما فيها، وعندما رجعت إلى المنزل طلبت إلى زوجتي أن تلقي بالعلبة في القمامة وأن تلوثها لئلا ينتفع بها أحد، وغادرت المنزل.

ثم رجعت ليلاً فوجدت علبتَيْ سمن من السمن النباتي في منزلنا، فعجبت لهذا الأمر فأنا لم أُوصِ أحداً، فمن أين هاتان العلبتان؟ وسألت زوجتي في صباح اليوم التالي عن هذا، فكأنها كانت تظن أنني أوصيت بعض رفاقي أن يشتروا لي علبتين، فأخبرتها عن عدم علمي بهذا كله، وأنني لم أُوصِ أحداً أبداً، وأنني أُنْسِيْتُ الأمر كله أصلاً منذ طلبت منها أن ترمي علبة السمن في القمامة.

وأخبرتني أن شخصاً سأل عن منزلي بالاسم، وأنه ترك هاتين العلبتين، ولما كنت لا أرتضي لأحد من رفاقي أن يفعل هذا، وهم يعلمون طبيعتي الصارمة في مثل هذا الأمر، فقد بحثت عن الأمر حتى وصلت إلى مختار الحي الذي يعرف كل سكان الحي، فأخبرني بأن شخصاً لم يره من قبل قد سأله عن المنزل وعنوانه فأرشده، ولم يعلم الرجل إلى تاريخ كتابة هذه السطور من هو ذلك الشخص الذي جلب علبتي السمن؟! ثم كيف علم بذلك في اليوم نفسه؟ وما هذا الاتفاق الغريب؟ لا ريبَ أن هذا من تقدير الله جل جلاله الذي يدبر الأمور ويصرفها.

و- الأجل بيد الله وحده

أختي المسلمة، في هذه الوصية بيان لكون الأجل مكتوباً ومقدراً عند الله سبحانه، فالأجل كالرزق قدَّره الله تقديراً، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: 34]؛ فالأجل كله بيد الله سبحانه، ولا يملك أحد شيئاً أمام هذا كله؛ فإذا حانت ساعة وفاة أي

شخص فلا يستطيع أحد في الدنيا مهما كان قوياً أن يمنع عنه أجله، كما لا يستطيع أحد أن يزيد في عمر أحد.

وكل هذا مكتوب عند الله سبحانه في اللوح المحفوظ، والدعاء لا يفيد في الرزق ولا في الأجل [1] كما بيَّن النبي ﷺ لأم حبيبة حين دَعَتْ وقالت: اللهم أَمْتِعْني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، فأجابها النبي ﷺ: **«قد سألتِ اللهَ عز وجل لآجال مضروبة، وأيامٍ معدودة، وأرزاقٍ مقسومة، ولن يعجِّلَ شيئاً قبل حِلِّه، أو يؤخِّر شيئاً عن حِلِّه، ولو كنتِ سألتِ اللهَ أن يعيذكَ من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضلَ»** [2].

فأمُّ المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها دعت ربها أن يطيل عمر زوجها النبي ﷺ، وهذا يتضمن زيادة الرزق أيضاً، فأخبرها النبي ﷺ أن هذا الدعاء لن يقدم شيئاً أو يؤخر شيئاً، فالله سبحانه قد كَتَبَ عنده مقادير الأرزاق ومقادير الأعمار، وذلك في اللوح المحفوظ، فالدعاء بأمر آخر هو أكثر فائدة من هذا الدعاء؛ وأشار النبي ﷺ إلى أهمية دعاء الاستجارة من عذاب القبر والنار، أعاذنا الله منهما.

وأما أن العمل الصالح يطيل العمر، فهذا أمر قد كتبه الله أيضاً، فالله كتب في كتابه أن فلاناً سوف يصل رحمه مثلاً وسيطول أجله لذلك، فكتب الله أجله منذ الأزل بناءً على ما يعلمه من عمل ذلك الشخص، فالله سبحانه قد كتب الأجل منذ الأزل لا تبديل لعلمه، كما كتب ما سيعمله الرجل وما سبب زيادة أجله.

وقد يدعو النبي ﷺ لشخص أن يزيد الله في عمره فيعيش الشخص طويلاً كأنس بن مالك رضي الله عنه، فهذا أيضاً قد كتب في اللوح المحفوظ

---

(1) هذه مسائل فيها خلاف بين علماء العقيدة يُرجع إليها في كتب علم الكلام.

(2) حِلّه: أوانه وحِينه.

openkanal.com

أن النبي ﷺ سيدعو لفلان وسيزيد الله في عمره. فعِلْمُ الله في اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدل، فالرزق كالأجل قد كتبهما الله لكل شخص مع عمله أيضاً.

ز- الموت حالات لا أسباب

أختي المسلمة، ثمة فرق بين الحالة والسبب؛ فالحالة ظرف قد يؤدي إلى نتيجة متوقعة منه أو ربما لا يؤدي إليها، وأما السبب فهو يؤدي إلى النتيجة المتوقعة حتماً.

والسبب نوعان في هذا الوجود أيضاً: النوع الأول هو سبب مقيد بوجود الشروط وبامتناع الموانع، والنوع الثاني هو سبب مطلق لا قيدَ فيه ولا شرط. فأما النوع الأول فهو كل ما يؤدي إلى نتيجة في هذه الحياة مما حولنا؛ فالطلقة تصيب الإنسان في قلبه فتقتله بحسب ما نرى، والزجاج ينكسر بالأشياء الصلبة، غير أن هذا كله مجرد سبب مقيد بشروط كثيرة وفيه موانع كثيرة، فهو وإن أسميناه سبباً إلا أنه في الحقيقة سبب غير حقيقي، بل هو "مَظَنَّةُ السبب"؛ أي أنه يُظَن أنه سبب حقيقي، وليس كذلك.

وأما السبب الحقيقي فهو النوع الثاني، وهو واحد لا غير، ولا وجود لغيره، فهو الله سبحانه وتعالى مسبّب الأسباب وفاعل كل شيء سبحانه، فهو الذي يتدخل في هذا الوجود بدون شروط وبدون موانع تقيِّد أفعاله.

وإذا ما نظرنا في النوع الأول فإننا نجد أن السكين قد خلق الله فيها خاصية القطع، غير أن وجود هذه الخاصية وحدها لا يكفي لإحداث الموت، فكما أن وجود خاصية الاحتراق في الخشب لا يكفي لاحتراق الخشب فكذلك خاصية القطع وجودها لا يكفي للحكم على أن الرأس المقطوع بها هو سبب الموت.

وهذا يعني أن السكين ليست هي السبب الحقيقي لإحداث الموت، وإنما سبب الموت هو انتهاء الأجل الذي حدَّده الله سبحانه للعبد أو للكائن الحي

على هذه الأرض. وكل ما نفعله من أمور إنما هي أسباب مظنونة وليس أسباباً حقيقية قطعية تؤدي إلى الموت، ولذلك قلنا: هي مَظنة السبب. وأيضاً فالموت حالات لا أسباب في الحقيقة، والآلة التي تعلّق بها الموت وأدت إليه هي مظنة السبب كما قلنا.

فالشخص الذي قطعت رأسه بسكين كانت الآلة التي هي السكين هي مظنة السبب أو سبباً غير حقيقي، والموت الحاصل هنا هو حالة من حالات الموت التي تحدث بأمور لا يحصيها إلا الله؛ فالموت يكون بتوقف القلب، وباصطدام سيارة بأخرى، وبحوادث قطارات، وطائرات، وبأدوات تسقط على الرأس والبدن، وبآلات حادة أو أدوات حادة، والكثير الكثير غيرها، وكلها أحوال للموت فقط، وأما السبب الحقيقي فكان انتهاء الأجل الذي حدده الله سبحانه منذ الأزل وعَيَّنَهُ في كتابه المحفوظ.

ح- عمل الإنسان والقَدَر

أختي المسلمة، لقد أوضح النبي ﷺ لنا في هذه الوصية أن العبد من عباد الله يعمل العمل الصالح طَوَالَ حياته، ثم يقترب منه الموت فإذا بهذا العبد قد عمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وكذلك العكس، فالعبرة بخواتيم الأعمال، كما أن الله سبحانه علم كل ما سيفعله العبد وكتبه في كتابه، وتبين عنده سبحانه بعلمه ما سينتهي إليه حال كل عبد خلقه أو سيخلقه، وهذا العلم لا يتغير.

والكرام الكاتبون من الملائكة الذين يدونون ما نفعل من أعمال في صحف لديهم، فهذه الصحف يتم فيها التغيير؛ فالمَلَكُ يكتب الحسنة ويمحو السيئة، وذلك بعد أن تأتي الحسنة بعد السيئة في العمل، فالله قضى بأن الحسنات تمحو السيئات، والملائكة يفعلون ما أمرهم الله به أن يفعلوه من المحو

والإثبات، ولذلك قال الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39].

فأم الكتاب هو ما كان في اللوح المحفوظ، وأما ما تكتبه الملائكة فيمحو الله منه ما يشاء ويثبت ما يشاء، فهذه هي أعمال العباد التي تتغير بين الفينة والأخرى بحسب ما يكسبه الإنسان من حسنات على أعماله أو سيئات. وأما علم الله في اللوح المحفوظ فهو أزلي لا يتبدل ولا يتغير.

وعبارة **«فيسبق عليه الكتاب»** إنما تدل على علم الله سبحانه بما يعمل عبده في اللوح المحفوظ، فهذا العلم سابق على كل شيء، وهو سابق على عمل العبد إذ إن الله سبحانه علم أن ذلك العبد سوف يعمل عمل طاعة أو معصية في أول حياته أو آخرها، وعلم كيف سينتهي أمر العبد: إلى شقاوة أو إلى سعادة.

فيفيدنا كلام النبي ﷺ في هذه الوصية أمرين: أحدهما علم الله سبحانه الأزلي الذي لا يتغير، وهو علمه في الذكر أو اللوح المحفوظ أو أم الكتاب، وهذا فيه دلالة على قدرة الله سبحانه، فإحاطة الله علماً بكل أعمال العباد دالة على أنه القدير الذي لا يفوته شيء ولن يفوته شيء، ونجد في القرآن الكريم أن الاستدلال على قدرة الله يتم بالاستدلال بعلمه سبحانه، فالعالم بالشيء يكون قديراً، وعلمه دالّ على تلك القدرة.

وأما الأمر الثاني الذي نستفيده من هذه الوصية فهو أن الله سبحانه وتعالى خلق العباد مختارين لأفعالهم الصادرة عن جوارحهم وأعضائهم، وما تقرره عقولهم من اختيار أحد طريقين أيضاً: طريق الخير أو طريق الشر، ونهاية أعمالهم في الحياة الدنيا هي بحسب تقدير عقولهم هم، وليس أحد من

الناس مجبراً على فعل شيء، ولولا اختيار العباد لأفعالهم ما كان للجنَّة والنار معنىً، إذ كيف يحاسب الله عبداً على أمر أكرهه عليه إن هذا لا يصح في النظر السليم.

وأما قوله ﷺ: **«إن الله خَلَقَ خَلْقَهُ في ظلمة فألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابَهُ من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضَلَّ»** فهذا يعني أن الله سبحانه وتعالى قد ألقى نوره فوصَلَ نوره إلى من كان سيعمل في حياته عملاً صالحاً، ومن لم يصبه ذلك النور كان عمله هو عمل الضلالة لأنه هو من سيختار بنفسه أن يعمل عمل أهل الضلال، إذ إن نفسه لم تقبل نور الله، كما أن من كانت نفسه ستعمل عمل الخير فإنها بلا شك تكون قد قبلت نور الله، فهذا الشخص هو بنفسه من اختار أن يعمل عمل أهل الهدى.

وأيضاً جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيمَ العملُ اليومَ؟ أفيما جَفَّت به الأقلامُ وجَرَتْ به المقاديرُ أم فيما يُستقبَلُ؟ قال: **«لا، بل فيما جَفَّتْ به الأقلام وجرت به المقادير»** قال: ففيم العمل؟ قال: **«اعملوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له»**[1].

فالرسول ﷺ أراد أن يُفهم ذلك الصحابي السائل أن علم الله سابق ومتقدم على كل شيء، وهو علم أَزَلي لا يتغير، ولكن فهم الصحابي أن هذا العلم مربوط بعمل العبد، فأفهمه النبي ﷺ أن ما كتبه الله على العباد ليس يعني أنه فرض ذلك على العباد وأجبرهم عليه، ولكن يعني علم الله، وعلى العباد أن يعملوا بما خلقهم الله من أجله، ومعنى **«كلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ**

(1) جفت به الأقلام: أي كناية عن علم الله المحفوظ في اللوح المحفوظ، فالله سبحانه قد فرغت الأقلام من كتابة ما أراده من المقادير والأمور الغيبية، فالكتاب قد فرغت الأقلام منذ زمان بعيد من كتابتها فيه، ولذلك عبر عن ذلك بعبارة "جفت الأقلام". جرت به المقادير: أي قدرت المقادير فيه في اللوح المحفوظ.

له» أن العبد أو العباد قد خلق الله فيهم ما يمكّنهم من العمل والسير في العمل على نحو تختاره عقولهم، فغرس فيهم القدرات والطاقات اللازمة لأداء الأعمال التي تلزمهم في مسيرة حياتهم، وكلٌّ يعمل بحسب ما يختار لنفسه من طريق الخير أو طريق الشر.

obeikandl.com